



العاشرة مجلة

المجلد الثالث، ٢٠١١

مجلة مسجلة لدى المسجل للجرائد في الهند (RNI) برقم KERARA00011
ومجلة معتمدة لدى جامعة كيرلا، الهند



قسم العربية، كلية الجامعة، تروننترم، كيرلا، الهند، 695034

الحديث ولغته وبلاعنته

د/ أ. م. محمد بشير

محاضر ضيف، قسم العربية، كلية الجامعة، ترونتبرام، كيرلا، الهند

وإذا لفتنا أنظارنا إلى لغة الحديث وبلاعنته رأينا أنها قد أثرت تأثيراً خاصاً في قلوب السامعين والدراسين وكان كلامه [﴿]ذا أثر بلغ في نفوس الناس عامة وفي المسلمين خاصة، وأدهش الناس لغته [﴿]الفصيحة الأصلية وهو أمي لا يعرف القراءة والكتابة، وكلامه هذا يعرف بالأحاديث الشريفة أو السنة النبوية. الحديث في اللغة يطلق على معانٍ عديدة، منها الجديد والطريقة. والحديث عند العامة هو الكلام الذي يتحدث الناس به ويطلق أيضاً على القرآن، قال الله تعالى "الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً" ^١. الحديث في الاصطلاح أفعال النبي [﴿] وأقواله وتقريراته وأوصاف خلقه وخلقه والسنن القولية هي الأحاديث التي قالها في مختلف الأغراض والمناسبات، مثل قوله [﴿]"في السائمة زكاة"، قوله في البحر "هو الظهور ما فيه الحل ميتته" ^٢. وال السنن الفعلية هي أفعاله مثل أدائه الصلوات الخمس بheimاتها وأركانها وأدائه مناسك الحج ^٣ وهلم جرا. والسنن التقريرية هي ما أقره الرسول [﴿] مما صدر عن أصحابه من أقوال وأفعال بسكونه وعدم إنكاره أو عدم موافقته، مثل أن أصحابي خرجا في سفر فحضرتـهما الصلوة ولم يجدا ماء، فـتيمما وصلـها ثم وجـدا الماء في الوقت، فأعادـ أحدهـما ولم يـعد الآخر، فـلما قـصـا أمرـهـما على الرسـول [﴿]، أـقـرـ كـلاـ منـهـما على ما فـعـلـ، فـقـلـ للـذـي لم يـعـد أـصـبـتـ السـنـةـ وأـجـزـأـكـ صـلـاتـكـ، وـقـالـ للـذـي أـعـادـ: لـكـ الأـجـرـ مـرـتـيـنـ" ^٤. ومـا لـ شـكـ فـيـهـ أنـ الـحـدـيـثـ هوـ الـمـصـدـرـ الثـانـيـ منـ مـصـادـرـ إـلـاسـلـامـ وـلـحدـيـثـ حـيـاةـ عـظـيـمـةـ وـمـرـتـبـةـ عـالـيـةـ تـلـىـ مـرـتـبـةـ الـقـرـآنـ الـعـظـيـمـ فـيـ بـيـانـ أـمـورـ الـدـيـنـ وـأـحـكـامـ وـبـلـاغـهـ لـلـمـسـلـمـيـنـ وـإـنـ كـانـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ كـالـشـمـسـ فـالـحـدـيـثـ كـالـقـمرـ.

شواهد القرآن على أهمية الحديث

هناك كثـيرـ منـ الـآـيـاتـ تـدلـ عـلـىـ أـهـمـيـةـ الـأـحـادـيـثـ، وـهـذـهـ الـآـيـاتـ تـدلـ عـلـىـ إـطـاعـةـ الرـسـولـ لـازـمـةـ عـلـىـ الـأـمـةـ الـمـسـلـمـةـ جـمـعـاءـ لـيـنـالـواـ رـضـىـ اللـهـ تـعـالـىـ. فـهـيـ تـدلـ عـلـىـ صـدـقـ كـلـامـ الرـسـولـ [﴿] وـهـاـكـ بـعـضـ مـنـهـاـ: "مـنـ يـطـعـ الرـسـولـ فـقـدـ أـطـاعـ اللـهـ وـمـنـ تـولـىـ فـمـاـ أـرـسـلـنـاكـ عـلـيـهـمـ حـفـيـطاـ" ^٥، وـ"قـلـ إـنـ كـنـتـ تـحـبـونـ اللـهـ فـالـتـبـعـونـيـ يـحـبـبـكـمـ اللـهـ وـيـغـفـرـ لـكـمـ ذـنـوبـكـمـ وـالـلـهـ غـفـورـ رـحـيمـ" ^٦، وـ"فـأـمـنـواـ بـالـلـهـ وـرـسـولـهـ النـبـيـ الـأـمـيـ الـذـيـ يـؤـمـنـ بـالـلـهـ وـكـلـمـاتـهـ وـاتـبـعـوهـ لـعـكـمـ تـهـنـدـونـ" ^٧، وـ"وـمـاـ آـتـاـكـمـ الرـسـولـ فـخـذـوهـ وـمـاـ نـهـاـكـمـ عـنـهـ فـلـتـنـتـهـواـ وـاتـقـواـ اللـهـ إـنـ اللـهـ شـدـيدـ العـقـابـ" ^٨، وـ"وـاطـبـعـواـ اللـهـ وـرـسـولـهـ إـنـ كـنـتـ مـؤـمـنـينـ" ^٩، وـ"الـقـدـ كانـ لـكـمـ فـيـ رـسـولـ اللـهـ أـسـوـةـ حـسـنـةـ لـمـ كـانـ يـرـجـواـ اللـهـ وـالـيـومـ الـآـخـرـ وـذـكـرـ اللـهـ كـثـيرـاـ" ^{١٠}. وـمـنـ مـثـلـ هـذـهـ الـآـيـاتـ الشـرـيفـةـ يـظـهـرـ أـنـ الـحـدـيـثـ حـجـةـ قـاطـعـةـ وـحـقـيـقـةـ نـاصـعـةـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ وـشـرـيـعـةـ مـطـاعـةـ وـلـاـ حـيـاةـ لـلـمـسـلـمـيـنـ إـلـاـ بـالـأـحـادـيـثـ. وـمـاـ فـعـلـهـ

- | | |
|------------------------|---------------------------------------|
| ١ سورة الزمر: ٢٣ | ٢ إسفار الظلم عن أسفار الأعلام، ص: ٥٠ |
| ٣ المصدر السادس، ص: ٥١ | ٤ المصدر السادس، ص: ٥٠ |
| ٥ سورة النساء: ٨٠ | ٦ سورة آل عمران: ٣١ |
| ٧ سورة الأعراف: ١٥٨ | ٨ سورة الحشر: ٧ |
| ٩ سورة الأنفال: ١ | ١٠ سورة الأحزاب: ٢١ |

النبي ﷺ و عمله، هو بأمر من الله، وما كان يتألف شيئاً إلا بإامر الله تعالى. يقول الله تعالى "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى".^١

لغة الحديث

أما لغة الحديث فليس فيه شك على أنها لغة عربية فصحى إذ كانت لغة أمه ﷺ اللغة العربية الفصحى التي أعجز العرب باتيان مثل آيات من القرآن. وقد أثرت لغته وبلاعاتها وفصحتها قد أدهش الناس جمّة وجماعة مع كونهم كانوا أهل اللغة العربية، وفي اللغة لهجات غير واحد، وللهجة قريش هي لهجة القرآن وذلك لهجة النبي الرسول الأمي لا يعرف القراءة والكتابة، ولكن هو أوضح العرب بيد أنه من قريش وللهجة قريش أوضح اللغات لهجة. ولغة النبي لغة أنيقة سهلة سيالية، وهي أوضح اللغات وأبینها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعان التي تقوم باللغات. وهذا ظاهر أن الله سبحانه وتعالى أنزل الله أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بأشرف نهج بسفارة أشرف الملائكة وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض. ولغته ﷺ وحدت بين العرب لاسيما أوس وخرج بطريق القرآن العظيم وجوابه الكلم، وكانت لغته مجذبة قلوب الناس بحيث يذعن الناس إلى أقواله بأمل ورغبة وأثار الرسول مشاعرهم وأفكارهم وعواطفهم وأحساسهم وما امتحنهم بكلامه العويض وباستعماله الجاف. وكان استعمال مفردات اللغة وتراتيبها وأساليبها مختاراً متميزة مفهومه بحيث ليس فيها غرابة وإذا كلامه ﷺ يعكس ما أشير هنا كيف الناس يتبعونه. وإن الله سبحانه أرسل رسوله مفسراً للقرآن الكريم بقوله "وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون". فواجب عليه توضيح آيات القرآن الكريم ومسائله وأحكامه بأسهل لغة بعبارة فصيحة "ورسم منهاجها (الشخصية الإسلامية) الرسول ﷺ بالغاية الفائقة من لدن الرسول يغذيهم ويربيهم ويزكيهم وينميهم...". والدكتور محمد طحان: "...فقام ﷺ مبيناً له بأقواله وأفعاله وتقريراته بأسلوب واضح مبين". وجدير بالذكر بأن لغة الرسول وأسلوبها لا تتشابه بكلام سائر الناس بخصوصية أسلوبه واستعماله وحسن ديباجه وتنبه من كلام الله تعالى: "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك" ، اللفظ "الغليظ" المراد به هنا غليظ الكلام، يقول لو كنت سين الكلام فاسى القلب عليهم لانفظوا عنك وتركواك. عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ إن الله أمرني بإقامة الفرائض ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث قطيباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير وشاروهم في يوم أحد والخندق. وقال ﷺ في قصة الإفك "أشروا على عشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورمواهم".^٢

فصاحته وبلاعته

كان النبي ﷺ أوضح الناس كلاماً وأبلغ الناس تلطفاً وأيسارهم أسلوباً، وفصاحته وبلاعته أعلى وأجل يلي رتبة أسلوب القرآن، بل ليس كأسلوب القرآن ونظمه. ويقول محسن طاهر محاكي عن الغزالي في الإحياء كان ﷺ أوضح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً، ويقول أنا أوضح العرب، وأن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد ﷺ، إلى أن قال: وكان ﷺ يتكلم بجموع الكلام لا فضول ولا تقصير، كأنه يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه وكان ﷺ جهير الصوت أحسن

^١ سورة النجم: ٤-٣

^٢ سورة النحل: ٤٤

^٣ نفحات من السيرة، لجنة التأليف، مؤسسة البلاعن ص: ٦

^٤ د/ محمود طحان: تيسير مصطلح الحديث، ص: ٤

^٥ سورة آل عمران: ١٥٩

^٦ تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص: ٤٢٠

الناس نغمة^١. ويقول جماعة من العلماء منهم د/ شكري عياد وعبد الله بن إدريس في هذا الصدد: وكلام النبي ﷺ هو أبلغ كلام صدر عن بشر، ولكن بلاغة القرآن في أفق لاتناله بلاغة الإنسان. ويمتاز الحديث الشريف بما يأتي:

١. أنه موجز إيجاز بلغا، قوله ﷺ "قل آمنت بالله ثم استقم"، ولهذا سمي جوامع الكلم.

٢. أنه خال من التكلف والزخرف ينساب من طبع صادق ونبع غزير صاف.

٣. أن معانيه مستفادة من معانٍ القرآن فهي تفضل المجمل من القرآن وتوضح أحكام التشريع.

٤. أنه سهل اللفظ، واضح المعنى، مشرق العبارة، يخاطب في سهولته العامة والخاصة^٢.

ومن أحاديثه الموجزة الجامحة لكثير من المعاني الجليلة^٣: "الضعيف أمير الركب"، و"الخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله" (أبو يعلى والبزار)، "إِنَّمَا بَعْثَتُ لِأَتْعِمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ" (مالك)، "أبواب الجنة تحت ظلال السيفوف" (مسلم)، "لِيُسَّرَّ الْغَنِيُّ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرْضِ وَلَكِنَّ الْغَنِيَ غَنِيَ النَّفْسِ" (البخاري ومسلم وأحمد والترمذى وابن ماجه)، "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" (المتفق عليه)^٤

ويقول الأستاذ محمد مصطفى كامل "القرآن خطاب السماء للأرض والكلام النبوى كلام الأرض بعد السماء. البلاغة النبوية تبدى الحقيقة كأنها فكر صريح من أفكار الخليقة، وتجلى بالمجاز الغريب، فترى من غرابته أنه مجاز في حقيقة"^٥. وكان رسول ﷺ مطبوعا على اللغة الفصحى منقطع لإحيانها وترقيتها، وكان يفوق في علو البيان وفصاحة اللسان. وما كان ﷺ معروفا بينهم بالخطابة والكتابية ولا بالشعر بل صار بعد النبوة أكثر الناس بلاغة وفصاحة وهذا أسلوب رائع خلاب. وتصلع النبي ﷺ في الفصاحة والبلاغة بعد أن كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة. وهذا حق بأنه كان ﷺ أميا وذلك لئلا يرميه أعداؤه أنه كان قارنا وكاتبا، وما أتى به هو من علومه. وبعد النبوة زالت أميته وقد صار أبلغ الناس خطابة وواعظا ومرشدا ناصحا وأميرا وقائدا. ويقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن: "إن النبي ﷺ عرف القراءة والكتابة في آخر أمره بعد أن قامت حجته وعلت كلمته، وعجز العرب في مقام التحدى عن أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الذي جاء به... وأنه مبعوث الحق إلى خليقه ولو كان وقتلاً كاتباً قارناً وهم أميون لراجت شبتهم في أن ما جاء به نتيجة اطلاع ودرس وأثر نظر في الكتب وبحث^٦". وروى ابن أبي شيبة وغيره "ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ" إن الله يقول في ذلك الأمر: "وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تحظه بيمنيك إذن لراتب المبطلون"^٧. وهي (السنة النبوية) ينبوع الفصاحة والبلاغة ومنشاً رواح الفن والاشرافه^٨. ويقول مصطفى صادق الرافعي في وصف البلاغة النبوة "هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها وحضرت العقول دون غايتها، لم تصنع وهي من الأحكام كأنها مصنوعة ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة"^٩.

وكان رسول الله ﷺ يخاطب الناس بالحنهم وعلى مذهبهم وعلى لهجتهم بأفصح كلام وبعبارة بينة وبأمانته سديدة بحيث يرضونه ويحبونه، لأن النبي ﷺ وتقلب في أقصى القبائل وأخلصها منطقاً، وأعذبها بياناً، فكان مولده في بني هاشم، ومنشأه في قريش، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخررج من الأنصار، ولذا قال ﷺ: "أنا أ Finch العَرَبَ بِيَدِي".

^١ محسن طاهر، مختارات من سنن خاتم الرسالات، ص: ٩٨-٩٧

^٢ شكري عياد وغيره، الأدب نصوصه وتاريخه، الإداره العامة للتطوير التربوي، السعودية، ط ١، ص: ١٤٨

^٣ المصدر السابق/ ص: ١٤٩-١٤٨

^٤ البُعْثُ إِلَّا سَلَامٌ، مارس ٢٠١٠، ص: ٢٦

^٥ الشیخ محمد عبد الغظیم الزرقانی، مناهل العرفان، ج ١، ص: ٣٥٧

^٦ المصدر السابق، ص: ٣٥٨

^٧ البُعْثُ إِلَّا سَلَامٌ، مارس ٢٠١٠، ص: ٢٦

^٨ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: ٢٧٩

أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر". وما كان بين هؤلاء العرب أفصح من النبي ﷺ ولا أبلغ إذ "ولو كان فيهم أصح منه لعارضوه ولأقاموه في وزنه... غير أنهم عرروا منه الفصاحة على أتم جوها وأشرف مذاهباً..."^١.

ومن نماذج أسلوب كلامه لمن يخاطبه

قد كان النبي ﷺ يوماً عند أم سلمة وابنته زينب هناك، فجاءته فاطمة الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضي الله عنهما، فضمها إليه، ثم قال: "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد" فبكت أم سلمة فنظر إليها رسول الله ﷺ وسألها في حنو "ما يبكيك؟"، أجبت: يا رسول الله خصصتهم، وتركتني وابنتي قال: "إنك وابنتك من أهل البيت" ، واطمأن قلب أم سلمة بسماع إجابة النبي ﷺ. عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه حين تحدث عن قوم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فقام عكاشه بن محسن فقال: ادع الله ان يجعلني منهم. فقال: "أنت منهم" ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: "سبقك بها عكاشه". هناك أجاب عن السائل الثاني بحكمة وبرى العلماء أن الثاني لم يكن من الفضلاء وبعضهم يرون أنه كان منافقاً. ولذا أجاب بحكمة بحيث يطمئن قلبه^٢. (تعليق قاضي عياض). عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إننا لسنا لهينك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا" . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إن الدين يسر ولن يشاد الدين إلا عليه فسدوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة ومن شيء من الدلجة". ومن أسلوبه في القسم: والذي نفسي بيده بدل والله وذلك كثير، وكان يختبر عقول الصحابة وذكائهم، وكان لذلك يسأل الأسئلة وذلك مطرد في التربية والتعليم في هذا العصر. منها عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثني ما هي... (الحديث)" . عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "إذا ألم أحدكم فليخفف، فإن فيهم الصغير والكبير والضعف والمريض وهذا الحاجة وإذا صلى بنفسه فليطول ما شاء". (المتفق عليه). عن المغيرة بن مشعية قال النبي ﷺ: "إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعاً وهات وكره لكم قيلاً وقال وكثرة السؤال (رواية الشیخان)^٣.

المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم
٢. صحيح البخاري.
٣. د/ محمود الطحان، تيسير مصطلح الحديث، كتب خانه دلهي، ١٩٨٥
٤. ابن كثير تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة بيروت لبنان، ١٩٨٢
٥. محمد طاهر، مختارات من سنن خاتم الرسالات، مؤسسة البلاغ، طهران إيران، ١٩٩٨
٦. السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب
٧. د/ الشكري عباده وغيره، الأدب: نصوصه وتاريخه، الإداره العامة، السعودية، ط. ١٠، ١٩٩٠
٨. مجلة البعث الإسلامي، الهند، مارس ٢٠١٠
٩. محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية بيروت، لبنان
١٠. مصطفى صادق الرافعى، إعجاز القرآن والبلاغة النبوة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠
١١. محمد رضا، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٩٨٨
١٢. عبد الله محمد، والأستاذ محمد، النثر الحديث، مارس، كالكوت.

١. المصدر السابق، ص: ٢٨٦
 ٢. د/ عبد الله محمد والأستاذ محمد، النثر الحديث، ص: ٤٥
 ٣. أسبوعية الدعوة المليارية، ديسمبر ٢٠١١، ٣١
 ٤. صحيح البخاري، كتاب الإيمان
 ٥. المصدر السابق
 ٦. صحيح البخاري، كتاب العلم
 ٧. محمد رضا، محمد رسول الله، ص: ٥٠١-٥٠٠